مدرسة قد سمح

بشرح المهندس علاء حامد

ملخص المحاضرة الخامسة

علاء حامد

Alaa Hamed

الحمدُ لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه ﷺ.

أما بعد: مرحبًا بكم في لقاءٍ جديد من مدارسة جزء «قد سمع». بفضل الله قد أنهينا سورة المجادلة وبدأنا سورة الحشر، وقد تناولنا في اللقاء الأول سبب نزولها المتعلق بغزوة بني النضير، وما تضمّنته من أحكام الفيء ومقاصده الشرعية، وانتهينا إلى قوله تعالى {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ}

سنواصل اليوم تدبر الآيات (8-15).

(الآية 8)
{لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَـٰجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ الصَّـٰدِقُونَ}

{لِلْفُقَرَآءِ}
أي أن أموال الفيء تصرف لهؤلاء، وهي مرتبطة بالآية السابقة قوله تعالى:
{مَآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ}
الفيء: ما أخذه المسلمون من أموال الكفار دون قتال.

الفرق بين الفيء والغنيمة:
الغنيمة تُقسم أربعة أخماس للمجاهدين، والخمس المتبقي للأقسام الشرعية الخمسة
أما الفيء فيوزع كله على مصارفه الخمسة:
لله والرسول : فكان صلى الله عليه وسلم يأخذ منه ما يكفيه وأهله، ثم ينفق الباقي في مصالح المسلمين.
لذوي القربى : هم آل النبي من بني هاشم وبني المطلب، عوضهم الله بالفيء لأنهم لا يأخذون من الزكاة.
اليتامى: من فقد أباه وهو صغير، وغالبًا يكون فقيرًا.
المساكين: من لا يجد كفايته.
ابن السبيل: المسافر المنقطع يُعان حتى يرجع ولو كان غنيًا في بلده. ولا يُطالَب بردّ المال لأنه استحقّه ساعة الأخذ، وهذا من كرم الإسلام.

قال تعالى:
{كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَآءِ مِنْكُمْ}
الغاية الاقتصادية للفيء؛ حتى لا تُحتكر الأموال بين الأغنياء، فيقيم الإسلام توازنًا اقتصاديًا فريدًا؛ فيتوسط يقرّ التملك الفردي لكنه يُوجب حقًّا معلومًا للفقراء.

الإسلام منهجٌ وسطي بين الشيوعية التي ألغت الملكية ظلمًا، والرأسمالية التي أطلقتها بلا ضوابط وأباحت جمع المال بأي وسيلة ولو محرّمة. فصار المال فيها بيد الأغنياء، وحُرم الفقراء من حقهم، وانتشار الربا والفوائد فنتج عن ذلك مجتمعٌ تزداد فيه الفوارق وتغلب عليه الفاقة.

جاءت آيات القرآن الكريم وهدمت النظامين؛ كما في قوله:
{وَالَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ}
(المعارج: 24–25).
{فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ}
دمرت النظام الشيوعي فنسبت المال إلى صاحبه واثبتت الملكية.
{حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ}
هدمت الرأسمالية؛ حيث أعطت الفقير حقًا في مال الأغنياء، كالزكاة والصدقات.
أما في الإسلام لك حقّ التملك، وفي مالك حقٌّ معلومٌ لغيرك، فجعل الله الفيء كله للفئات التي تحتاج للإعالة فيحصل على الحياة الكريمة والكفاية.
مرونة توزيع الفيء لتحقيق المصلحة العامة:
لا يُشترط توزيع المال بين فئات الفيء بالتساوي، بل يجوز تغليب فئة على أخرى بحسب الحاجة. فإن كثر المساكين مثلًا ولم يوجد ابن سبيل، جاز صرفه لهم كله. فالأمر راجع لاجتهاد الإمام بما يحقق المصلحة العامة.

{لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَٰجِرِينَ}
أي أن أولى الناس بالفيء هم المهاجرون الذين تركوا أموالهم وديارهم لله ورسوله ﷺ، كما في غزوة بني النضير بداية العهد المدني حين كانوا أشدّ الناس حاجة، لأنهم ضحوا بدمائهم في سبيل الله.
نماذج من المهاجرين وتضحياتهم :
كان فيهم الفقراء وفيهم الأغنياء الذين افتقروا.

عندما أراد صهيب الهجرة، اعترضت قريش طريقه ومنعته من الذهاب بماله الذي جمعه طوال حياته، فقالوا له: "أتيتنا صعلوكًا حقيرًا ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟" رد صهيب عليهم بعرضٍ لا يُرفض: "أرأيتم إن تركت لكم مالي كله، أتخلون سبيلي؟".

فوافق المشركون على طلبه،

وفي المدينة استقبله النبي صلى الله عليه وسلم بابتسامة وقال له: "ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى".

ونزل فيه قوله تعالى:

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}

(البقرة: 207)

وكذلك عبد الرحمن بن عوف وأبو بكر وغيرهم ممن تركوا أموالهم نصرةً للدين.

{الْمُهَـٰجِرِينَ}

سمّى الله تعالى المهاجرين بهذا اللقب تكريمًا لهم على هجرتهم لله ورسوله ﷺ.

قال النبي ﷺ عن مكة: «والله إنك لأحب أرض الله إلي، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت».

{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ}

أي أُجبروا على الخروج، بسبب إكراه الكفار لهم، فتركوا المال والديار وتحملوا صعوبات المجهول بإيمان وثقة بالله، ولم يكن هدفهم أي غرض دنيوي

{يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ الصَّـٰدِقُونَ}

وهي شهادة وثناء من الله بصدق نياتهم وإخلاصهم، لنصرة الله ونبيه، موافقين لحديثه صلى الله عليه وسلم:

«إنما الأعمال بالنِّيَّات وإنما لكل امريء مانوى فمن كانت هجرتُهُ إلى اللَّهِ ورسولِهِ فَهجرتُهُ إلى اللَّهِ ورسولِهِ».

شهد الله سبحانه وتعالى لهم مما يعكس مكانتهم العالية وتضحياتهم العظيمة في سبيل الدين، وصدق نواياهم.

{أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ الصَّـٰدِقُونَ}

علو منزلتهم وكمال صدق إيمانهم عند الله.

ثناء الله على المهاجرين في القرآن الكريم:

قال سبحانه وتعالى:
{وَالسَّـٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَـٰجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَـٰنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}
(التوبة:100)
وقال تعالى:
{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَـٰجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ}
(التوبة:117)
واتفق علماء أهل السُّنة مجمعون على أن المهاجرين أفضل من الأنصار إجمالًا، وإن كان بعض الأنصار قد يَفْضُل على بعض المهاجرين.

والتفضيل العام للمهاجرين ثابت لأسباب عديدة:
القرآن قدَّمهم دائمًا على الأنصار
سبقوا بالإسلام
هم سبب إسلام الأنصار
ضحوا بأموالهم وتركوا ديارهم لنصرة الله ورسوله.

المهاجرون هم أولى الناس بمال الفيء كما ذكر سبحانه في الآية.

ثم بعدهم يأتي
(الآية 9)
{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}
أي أن الذين يأخذون من الفيء أيضًا هم الأنصار رضي الله عنهم، الذين استقروا في المدينة والإيمان في قلوبهم قبل قدوم المهاجرين، فجمعوا بين الدار والإيمان قبل اللقاء.
وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يوزع الفيء على المهاجرين ثم الأنصار ثم التابعين.
{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ}
أي سكنوا المدينة واستقروا.

{وَالْإِيمَـٰنَ}
لها احتمالين في التفسير:
الاحتمال الأول: أن في الآية محذوفًا مقدّرًا، أي أن المعنى: الذين تبوَّؤوا الدار والتزموا الإيمان، أو اعتنقوا، أو اعتقدوا.
الاحتمال الثاني: أنه لا حذف فيها، والمعنى على ظاهره؛ أي سكنوها، و"تبوَّؤوا الإيمان" أي استقر الإيمان في قلوبهم، وهو تعبير بليغ عن قوة إيمان الأنصار وثباتهم عليه إلى الموت، وكأنهم يسكنون في الإيمان كما يسكنون في بيوتهم.
الثناء على قوة يقينهم.

{مِن قَبْلِهِمْ}
أي أن الأنصار جمعوا بين الدار والإيمان قبل المهاجرين، إذ آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم في المدينة قبل قدومه إليها، وأكثرهم آمن به سماعًا دون أن يراه، مما يدل على سرعة استجابتهم ورقة قلوبهم، ويُظهر الفرق بينهم وبين أهل مكة الذين عاشوا معه طويلاً ولم يؤمن أكثرهم.
ثناء الله تعالى على الأنصار :
1. {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ}
ثناء على يقين الأنصار ومحبتهم للمهاجرين يظهر صفاء قلوب الأنصار وعظيم خُلُقهم؛ فقد أحبّوا المهاجرين بصدق رغم أنهم شاركوهم في طعامهم وشرابهم، لا لمصلحة أو مجاملة، بل إيمانًا وإخاءً.
تقديم المحبة على الإيثار:
قدّم الله المحبة على الإيثار لأن المهاجر يحتاج أولًا إلى القَبول والمودة قبل المساعدة المادية، فالشعور بالحب والتقدير أعمق أثرًا من العطاء.

درس لأهل الإحسان؛ الفقير لا يحتاج إلى المال فقط، بل إلى نظرة احترام تُشعره بالمساواة والكرامة. قال تعالى:
{قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}
(البقرة: 263)
فالكلمة الطيبة والابتسامة أعظم من صدقةٍ يصحبها منّ أو أذى.
لذلك قدّم الله ذكر المحبة قبل الإيثار تأكيدًا لأهمية البعد النفسي.

2. {وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ}

صفاء قلوب الأنصار يظهر في خلوّها من الحسد والضيق مما أُعطي المهاجرون من فضل وثناء، فقبلوا نصيبهم برضا، وازداد حبهم لإخوانهم مع علمهم بفضلهم عليهم..

3. {وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}

أي يقدّمونهم على أنفسهم في حاجاتهم الأساسية، ويقاسمونهم القليل الذي يملكونه، في أسمى صور الإيثار.

إسقاط المعنى على الواقع :

وهذا الدرس باقٍ لكل زمان؛ فكما احتضن الأنصار المهاجرين بحبٍّ وإيثارٍ صادق، ينبغي للمجتمعات اليوم أن تُحيي هذا الخُلُق في التعامل مع المحتاجين والنازحين، لتكون نموذجًا في الرحمة والاحتواء كما كان الأنصار رضي الله عنهم.

لم يبلغ أحد مرتبة الأنصار في المحبة والإيثار:

بدأ الله مدحهم بقوله: {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ}، أي استقبلوا المهاجرين بمحبة صادقة لا مجاملة فيها، وقالوا بقلوبهم قبل ألسنتهم: "جئتَ وأنا أحبك، خذ من رزقي وأنا راضٍ"، فكان حبهم نابعًا من إيمان خالص.

بلغ إيثار الأنصار قمّته حين عرضوا على النبي ﷺ أن يقاسموا المهاجرين أصول النخل، وهو أعزّ أموالهم، فرفض ذلك واكتفى باشتراكهم في الثمر دون العمل في الزراعة لعدم خبرتهم بها. ومع ذلك قبل الأنصار برضا وسخاء، فصدق فيهم وصف الله تعالى.

فقد جمعوا بين كمال المحبة وتمام الإيثار، فكانوا أسمى مثال في البذل والعطاء.

{وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}

أي الحاجة الشديدة أو الفقر.

وقد فسّرها المفسرون بمعنيين:

المعنى الأول: أن معناها الاختصاص أو التفرّد، أي أن الإنسان في حالة احتياج فريدة لا يشبهه أحد في هذا الضيق.

والمعنى الثاني: أطلقه العرب على المسافات الضيقة بين جريد النخل، والتي كانت تسمى "خصاصة"، ثم أُطلقت على الفقر الشديد.
معنى الآية هو أن الأنصار كانوا يقدمون المهاجرين على أنفسهم حتى في أشد حالات الحاجة والفقر، يقاسمونهم طعامهم وشرابهم القليل ويقدمون مصالحهم على مصالحهم الخاصة.
مواقف من حياة الأنصار في الإيثار:

يروي أبو هريرة رضي الله عنه قال:جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم محتاجًا، فأرسله عليه الصلاة والسلام إلى نسائه يسأل عن الطعام، فلم يكن لديهن إلا الماء، فقام رجل من الأنصار باستضافة الضيف وأمر زوجته بإكرام ضيف رسول الله وإعداد الطعام ولو بالكاد يكفي الأسرة، وأعدوا له السراج وأطفأوا ضوءه، وأظهروا أنهم يأكلون، بينما الضيف هو الذي أكل وحده. وعندما علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، أخبره الوحي فقال: "لقد ضحك الله الليلة أو أعجب الله بصنيعكما"، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

موقف سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف: آخى النبي ﷺ بينهما، وكان سعد أغنى الأنصار، وعرض نصف ماله على عبد الرحمن، لكنه رفض وأراد أن يتكسب بنفسه ويعمل، محافظًا على العفة والوسطية.
يظهر هذا أن الإيثار لا يتعارض مع الكرامة والعفة، وأنه أعظم عندما يكون قائمًا على رغبة صادقة في خدمة الآخرين.

واستقبل الأنصار المهاجرين في المدينة بكرمٍ عظيم، وآثروهم على أنفسهم، حتى قال المهاجرون كما في الحديث:
"يا رسول الله، ما رأينا مثل إخواننا الأنصار، في مواساة في فقر، أو بذل في كثير ، حتى خشينا أن يذهبوا بالأجر كله."
فقال لهم النبي ﷺ مطمئنًا ومربيًا:
"لا، ما دعوتم لهم وأثنيتم عليهم."
من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه.
شكر المعروف يكون إما بالمكافأة أو بالدعاء والثناء.
الإيثار يكون في أمور الدنيا فقط، لا في أمور الآخرة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:
"لا يؤثر أحدكم في الصف الأول".
الإيثار في الدنيا هو أن تُقدِّم أخيك في الأمور الدنيوية من مال أوطعام أو حاجته، أما في الطاعات وأمور الآخرة فالأجر لمن سبق.
من الأمثلة على ذلك قصة سعد بن خيثمة مع أبيه يوم بدر، حيث اقترعا أيهما يخرج، فخرج سعد وقُتل شهيدًا رضي الله عنه.

الإيثار والكرم في مواجهة الشح
قال النبي صلى الله عليه وسلم:
"أفضل الصدقة جهد المقل".
لمايكون معك القليل.
وقال أيضًا:
"سبق درهم ألف درهم".
فالقيمة ليست في كمية العطاء، بل في صدق البذل.
المحن هي التي تظهر معادن الناس.
يبلغ الإيثار قمّته حين يقدّم المرء غيره على نفسه وهو في حاجةٍ إلى ما يؤثر به، فيمنح رغم قلّة ما عنده واحتياجه الشديد.

أما المنافقون فكانوا يضمرون كراهية شديدة للمهاجرين، ويقولون ساخرين: "هؤلاء جاءوا فأخذوا طعامنا وشرابنا"، حتى قالوا كما ذكر الله تعالى عنهم:
{هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ }
(المنافقون:7)

{وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}
أي من حُفظ من شرّ الشح فقد فاز ونجا.
المقصود بالشح والفرق بينه وبين البخل:
الاحتمال الأول:إن الشحّ أشدّ من البخل؛ فالبخيل يبخل بما في يده فقط، أما الشحيح فيبخل بما في يده ويطمع فيما في أيدي الناس.

وقيل: الشحّ هو بخل مع حرص، أي أن الإنسان يُخرج المال وهو كاره.
وقيل: الشحّ أن تبخل على نفسك وعلى غيرك معًا، أما البخل أن تبخل على غيرك.
وقيل: الشحّ فهو أخذ أموال الناس بغير حق، أي أنه لا يكتفي بعدم أداء ما عليه، بل يعتدي على حقوق الآخرين، أما البخل هو الإمساك عن الحق الواجب.

الشحّ في مجمله أسوأ وأشدّ من البخل، لأنه يجمع بين البخل والحرص والظلم.
قال ﷺ:
"إياكم والشح، فإنما أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرَهم بالفُجورِ ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا".

والشح سببٌ في هلاك البيوت وقطيعة الأرحام وأكل أموال الناس بالباطل.

تغير الأنصار بالقرآن :
كان الأنصار قبل الإسلام غارقين في العصبية، خاضوا حروبًا طويلة بين الأوس والخزرج دامت أربعين سنة بسبب ناقة، حتى جاء الإسلام فطهّر قلوبهم، فأصبحوا يؤثرون غيرهم على أنفسهم ولو كانوا في حاجة.
وهذا هو أثر القرآن في النفوس. فمن لم يتغير بالقرآن، فالقرآن حجة عليه.

مكانة الأنصار وثناء النبي صلى الله عليه وسلم عليهم :
قال النبي صلى الله عليه وسلم:
"من أحب الأنصار أحبه الله، ومن أبغض الأنصار أبغضه الله".
وقال أيضًا :
"آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بُغض الأنصار".
كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول:
الأنصار شعار، والناس دثار، لو سلك الناس فجًّا وسلك الأنصار فجًّا لسلكت فجّ الأنصار، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار."
(الآية 10)
{وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}

{وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ}

أي كل من جاء بعدهم إلى يوم القيامة، بشرط أن يتبعوهم بإحسان.

علامات الإيمان بعد جيل الصحابة من المهاجرين والأنصار:

1. **حبّ المهاجرين والأنصار.**
2. **الدعاء لهم بالمغفرة.**
3. **سلامة القلب تجاههم.**

الرد على الشيعة في طعنهم بالصحابة:

تُظهر هذه الآية بطلان مذهب الشيعة؛ لأنهم يبنون عقيدتهم على الطعن في المهاجرين والأنصار إلا من كان من أهل البيت، مع أن الله أمر بالدعاء للصحابة بالمغفرة، فدل على أنهم ماتوا على الإيمان والدعاء بالمغفرة لا يكون إلا للمؤمن، لقوله تعالى:

{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءامَنُوٓا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}

(التوبة:113)

فمن أمر الله بالدعاء له بالمغفرة فهو مؤمن، وهذا ينقض زعمهم بأن الصحابة ارتدّوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

وكل الصحابة ماتوا على الخير، قد رضي الله عنهم كما قال تعالى:

{لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}

(الفتح:18)

فكيف يُتَّهم من رضي الله عنهم بالكفر أو الردة؟

الفتنة بين الصحابة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه:

فبعد مقتله وقعت الفتنة بين الصحابة، مثل واقعة الجمل بين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والسيدة عائشة رضي الله عنها، وكان فيها الزبير وطلحة رضي الله عنهم.

اختلافهم كان في مسألة اجتهادية: **هل يُقتصّ من قتلة عثمان أولًا، أم يُبايع عليّ أولًا؟**

فتسلّل المنافقون وأشعلوا الفتنة حتى وصلت إلى القتال، فقُتل الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، ثم تكرّر الخلاف بين عليّ ومعاوية رضي الله عنهما، ووقع القتال.

ورغم الفتنة، بقيت القلوب سليمة؛ فقد بكى عليّ على طلحة والزبير، وعاد بالسيدة عائشة إلى المدينة مكرّمة بعد حادثة الجمل.

منهج أهل السنة من الفتنة بين الصحابة:

أولاً: السكوت عمّا شجر بينهم، فلا نخوض في تفاصيلها إلا لردّ الشبهات.

ثانياً : سلامة الصدر تجاه جميع الصحابة شرط الإيمان، وعلامة أهل الإيمان.

بعض ردود التابعين على حادثة الفتنة :

ورد أن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، المعروف بزين العابدين حفيد الإمام عليّ رضي الله عنه، جاءه رجل يريد إثارة الفتنة فقال له: "ما تقول في عثمان؟"

فأدرك الإمام مقصده، فقال له:

"هل أنت من الفقراء المهاجرين الذين قال الله فيهم:

{لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَـٰجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ}؟"

قال الرجل: لا.

قال: "فهل أنت من {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ}؟ قال: لا.قال له زين العابدين: فإذا لم تكن من هؤلاء ولا من هؤلاء، فليس لك إلا أن تكون من الذين قال الله فيهم:

{وَالَّذِينَ جَآءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}

فإن لم تكن من هؤلاء الثلاثة، فلست من أهل الإيمان.

أي أن المؤمن لا يخرج عن أحد هذه الأصناف الثلاثة: المهاجرون، الأنصار، أو من جاء بعدهم مُحبًّا لهم وداعيًا لهم بالمغفرة.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «تلك دماء عصم الله منها سيوفنا، فلنعصم منها ألسنتنا».

الصحابة كلهم في الجنة :

بدليل قول الله تعالى:

{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُولَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}

(الحديد : 10)

{وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}

الغِلّ يعني الحقد والتحامل على الآخرين، وهو ثقل على النفس، ومن نعم الله على العبد أن يطهّر قلبه منه، وذلك من نعيم الجنة.

درجات الناس في الغل:

من لا يزول غلّه أبدًا، وهو من أسوأ الناس.

من يحتاج وقتًا وجهدًا ليصفو قلبه.

من يُسامح سريعًا وهو أفضلهم .

مخموم القلب:

قال النبي صلى الله عليه وسلم:«التقي النقي مخموم القلب صدوق اللسان».قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال:«هو التقي النقي، لا غلَّ فيه ولا حسد».

ورُوي عن رجل من أهل الجنة أنه كان يبيت كل ليلة وليس في قلبه غلّ ولا حسد لأحد من المسلمين.

تعلّمنا الآية أن الدعاء يطهّر القلب، فالشفاء يبدأ بالتوجه إلى الله ليزيل الغِلّ والعجب والكِبْر والرياء من قلوب المؤمنين. كما دعا يوسف عليه السلام:

{قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَٰهِلِينَ }

(يوسف:33)

سلامة القلب أقصر طريق إلى الجنة.

من صفات أهل الإيمان الدعاء لإخوانهم بظهر الغيب:

كانت أم الدرداء تقول:

لقد كان أبو الدرداء يدعو كل ليلة لثلاثمائة وستين من أصحابه. فقالت له: ألا تدعو لنفسك؟ فقال: «إني أحب أن يقول لي الملك: ولك بالمثل».

وكان الإمام أحمد يدعو كل ليلة لشيوخه، ومنهم الإمام الشافعي.

خُلُق ينبغي أن نُحييه فلنجعل الدعاء لبعضنا عادة دائمة نتواصى بها ونُكثر منها.

(الآية 11)

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ}

الآيات متتابعة؛ ذكر الله أولًا المهاجرين والأنصار، ثم المؤمنين عامة، ثم ذكر المنافقين.

قال تعالى عن المؤمنين:

{رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا}

فالمؤمن أخو المؤمن، والمنافقون إخوان اليهود.

أنواع الأخوة في القرآن :

1. أخوة النسب:

{لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءايَـٰتٌ لِلسَّآئِلِينَ}.

(يوسف:7)

2. أخوة القبيلة أو البلد:

{وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا}.

(الأعراف:65)

3. أخوة الدين:

{فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ}.

(التوبة:11)

{يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا}

والمقصود هنا أخوّة العقيدة الفاسدة، فالمنافقون ويهود بني النضير مِلّة واحدة.

اليهودي كفره وعداوته صريحان، أما المنافق أخطر لذلك هو في الدرك الأسفل من النار.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا}

المقصود نفاق عبد الله بن أُبيّ بن سلول وجماعته:

حيث وعدوا بني النضير بأنهم سينصرونهم، ثبتهم ووعدهم قائلاً لهم: سنأتيكم بغطفان وأربعة آلاف مقاتل، ولن نطيع النبي ﷺ فيكم أبدًا، ولو قُوتلتم لقاتلنا معكم.

{لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ}

أي لن نطيع النبي صلى الله عليه وسلم مهما أمرنا فيكم.

{وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ}

الأخوة الكاذبة في موقف المنافق مع اليهودي، يختلف عن الأخوة الصادقة وموقف الأنصار مع المهاجرين. فالأخوة المبنية على عقيدة صحيحة تُثمر أفعالًا صادقة، أما الأخوة المبنية على عقيدة فاسدة فتثمر وعودًا كاذبة.

من فوائد الآية الكريمة :

حرص المنافقين على بقاء اليهود؛ إذ إنّ بقاءَ المنافقين مرتبطٌ ببقاء الكفار. قال تعالى:

{فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ}

(المائدة:52)

خافوا أن تكون الدولة لهم، فالمنافقون يظهرون ولاءهم للكفار ليكسبوا رضاهم ويأمنوا شرّهم.

من علامات المنافق :

1.المنافق سليط اللسان على المؤمنين، ولطيف اللسان مع الكافرين.قال تعالى:

{سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ}

(الأحزاب: 19)

2.مع المؤمنين يخذلهم ويبيعهم ويثبطهم، ومع الكافرين يظهر الدعم والمساندة. في غزوة أحد قال المنافقون:

{قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَـٰكُمْ}.(آل عمران:167)

أمثلة على نفاق المنافقين :

{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا }.

(الأحزاب:18)

{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَـٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا}

(الأحزاب:12)

{إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ} (الأحزاب:13)

وما قصدوا إلا الفرار والخوف.

{وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ}

(محمد:30)

{وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ}

عِلم الله شامل يعلم كل شيء: ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

كما في قوله تعالى:

{بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ}.

(الأنعام:28)

فهنا تفيد العلم، وليس غلبة الظن.

{وَأَمَّا الْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا}.
(الكهف:80)
كان واقعًا بالفعل بعلم الله.

(الآية 12)
{لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ}

{لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ}
علم الله ما سيكون.

{وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ}
لم تقع لأنهم لم يقاتلوا، فلو وقع القتال ما قاتلوهم.
{وَلَئِنْ نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ}
حتى لو وقع القتال، فإن الله يبيّن أن المنافقين لن يقاتلوا بإخلاص، لأن الجبن جزء من طبيعتهم، فلا يواجهون المؤمنين صراحةً، ولا يظهرون كفرهم العميق. فالله علم ما في قلوبهم وأخبرنا بذلك، مبينًا حقيقتهم قبل وقوع الأحداث.

(الآية 13)
{ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ }

{ لَأَنتُمْ }
الصحابة خاصة، والعموم يشمل كل المؤمنين المتقين.
الرهبة: الخوف مع التعظيم، أي الخشية المقرونة بالإجلال لقوة المؤمنين.

قوة إيمان المؤمن تمنحه رهبةً أمام المنافقين، حتى لو بدت قوته للآخرين ضعيفة أو عادية.
من خاف من الله خاف منه كل شيء، ومن لم يخف من الله خوفه الله من كل شيء.

الإيمان يكسو المؤمن بمهابة ترفع قدره أمام الأعداء، فالمنافق يهاب المؤمن لصدق إيمانه، رغم ضعفه الظاهر.

الصحابة كانوا يفرضون رهبة على خصومهم:
سيدنا خالد بن الوليد حاصر حصنًا وقال للعدو: "أتيتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة"، فاستسلموا فورًا.
{ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ}
الفقه هو الفهم.
الفقيه يعلم أن كل الأمور بيد الله، فيقدّم رضا الله على رضا الناس ، أما المنافق يقدّم رضا الناس على رضا الله، لجهله بحكمة الله وقدرته.
من يفقه أمر الله يخافه ولا يخاف البشر، ويوازن الأمور بحسب مشيئته.
كل المصير، الملك، الرزق والحساب بيد الله وحده.

(الآية 14)
{ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ}
جميعًا: أما المنافقين وحدهم، أو المنافقين مع اليهود
فهم لا يستطيعون مواجهة المؤمنين وجهًا لوجه، بل يقاتلون من وراء جُدُر أو قرى مُحصنة، وليس بالمواجهة المباشرة.
المعارك الحديثة تظهر أن الأعداء غالبًا يقاتلون من وراء الحواجز والجدران، لتجنب المواجهة المباشرة
مثل الجدار العازل مع الفلسطينيين أو خط بارليف مع المصريين، أو باستخدام الطائرات والصواريخ، دون مواجهة مباشرة. هذا الأسلوب لا يحتاج إلى شجاعة حقيقية، فالمواجهة المباشرة هي دليل القوة والجرأة.
الشجاعة الحقيقية في القتال المباشر والالتحام، كما بيّن النبي صلى الله عليه وسلم عند وصفه للشهداء الذين يُؤمَنون من فتنة القبر: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رُءُوسِهِمْ فِتْنَةً».

حتى المخترع الروسي للرشاش "كلاشينكوف" قال: «اليوم ماتت الشجاعة»، لأن استخدام الأسلحة من بعيد يجعل الجبان يساوي الشجاع.

القوة والشجاعة تظهر في المواجهة المباشرة، والجبن يتجلى في القتال من وراء الحواجز.

{بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ}
شدة العداوة والخصومة بينهم فهم دائمًا مختلفين مع بعضهم البعض، ويظهرون الرجولة والقوة أمام بعضهم البعض، لكن عند مواجهة المؤمنين ينهارون ويظهر جبنهم.

{تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ}
هم متفرقون، ولايجتمعون إلا على عداوة المسلمين، وعند مواجهة المؤمنين ينهارون ويظهر جبنهم.
فلا عقيدة ثابتة، كل تحركاتهم صادرة عن دوافع دنيوية، على عكس المسلمين الذين يجتمعون على عقيدة راسخة.

الاختلاف بين الأعداء ووحدة المصلحة:
في الحرب العالمية الأولى والثانية، كان الكفار مختلفين داخليًا، وتصارعوا فيما بينهم، لكن بعد انتهاء الحروب أسسوا دولة اليهود لتوحيد صفوفهم ضد عدو مشترك، وهم المسلمين، فتوقف الصراع الداخلي مؤقتًا.
اليوم، المعارك بين الدول مثل أوكرانيا وروسيا تظهر أن هذه الاختلافات مستمرة، وأن أي نزاع قد يؤدي إلى حرب كبرى، مما يبيّن أنهم على المستوى الحقيقي مجتمعون على مصالح دنيوية، لكنهم داخليًا متفرقون ومتناقضون في مواقفهم.
الوحدة والتعاون أساس قوة المسلمين

{ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ}
العاقل يدرك أن الاجتماع قوة والفرقة هزيمة، فيختار وحدة الصف لأنها طريق النصر على الأعداء.

اتحاد المسلمين مقابل فرقة الأعداء :
{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوٓا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّٰبِرِينَ}
(الأنفال:46)

(الآية 15)
{كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

{مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا}
سيقع لأعداء المسلمين اليوم ما وقع لمن سبقهم من الكفار.
قيل ذلك بنو قينقاع، الذين كشفوا عورة امرأة وقتلوا مسلمًا فطردهم النبي صلى الله عليه وسلم.
وقيل كذلك الكفار في بدر، حيث لاقوا الهزيمة نتيجة أفعالهم.

لذلك، يجب التعلم من هذه الأحداث، فالآيات تُذكّر بعاقبة الظالمين والغافلين وتحض على التدبر والعمل.

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.